

علق هاهن الصراع الاءروبج الاسلامج

تسیرشیخ الأرض

مقدمة - من التاريخ الى الفكر

الكتابة عن الصراع الأوروبي الإسلامي تحتاج إلى مؤرخ، وأنا لست مؤرخاً، ولا أدعي أنني سأكونه! ولكنني رجل درس التاريخ في المدارس، واطلع من خلال قراءاته على جوانب لا بأس بها منه، وهو يريد أن يقف متأملاً حقيقة الصراع بين أوروبا والاسلام من خلال بعض الحقائق التاريخية التي تعلمها واطلع عليها. ولهذا، فالموقف الذي سأأخذ هنا هو موقف المتأمل، لا موقف المؤرخ!

ولكن اتخاذ موقف المتأمل من قضايا التاريخ، لا يمكن أن يكون من دون الاتكاء على الوقائع التاريخية؛ وبقدر ما تكون هذه الوقائع صحيحة، يكون تأملها قريباً من الصواب. ولكن التحقق من الوقائع ليس من عملنا، وهو خاضع لوجهة نظر المؤرخ، وهي تختلف بين مؤرخ وآخر. لهذا رأينا أن نتجاوزها - بما هي وقائع تاريخية - إلى الفعل الحضاري الكامن وراءها، والذي ينظمها في عقد يوحد بينها.

وهكذا، يمكننا أن نرد تاريخ الرومان إلى الفعل الروماني، وتاريخ الاسلام إلى الفعل الاسلامي، وتاريخ أوروبا إلى الفعل الأوروبي. ومتى فعلنا ذلك، أمكن لنا أن نوازن بين فعل وفعل، ونتنقل بالتالي من مجال التاريخ إلى مجال الفكر.

ولكن، ماذا نعني بالفعل بمعناه التاريخي؟ إننا نعني به «الروح العامة» التي تصدر عنها أعمال إحدى الأمم، في إقامتها معالم الحضارة في الحرب والسلم، والتي تميزها من «الروح العامة» لأمة أخرى. ولهذا، كانت هناك نقاط التقاء ونقاط اختلاف بين الفعل الاغريقي والفعل الروماني؛ وكذلك الأمر بينهما وبين الفعل الاسلامي أو الفعل الأوروبي: فخصائص الحضارة الاغريقية غير خصائص الحضارة الرومانية، وخصائص الحضارة الاسلامية غير خصائص هذه أو تلك. وقل الشيء ذاته بالنسبة إلى خصائص الحضارة الأوروبية، فهي تختلف عن خصائص

كل من هذه الحضارات، وإن كانت تتضمن عناصر من هذه وتلك. لهذا؛ لا بد لنا من التوقف عند كل فعل، وتحديد خصائصه، ورؤية كيفية عمله، وهو يصادف ما يصادف في طريقه!

ولكن الفعل - بما هو فعل - حرية وحتمية، حرية تنشب بحتمياتها تشبهاً حركانياً (ديناميكياً) ما دام الفعل فعلاً، حتى إذا انقضى خَلْف وراءه حتمياته القائمة في صميمه، تتحوّل إلى حتميات متحققة، سواء أكان تحققها مادياً أم فكرياً، حضارياً أم ثقافياً... الخ. وهكذا، يمكننا أن نقول: إن الفعل الاغريقي، بعد أن استفد امكاناته، ظلّ ماثلاً في حضارات الأمم وثقافتها، في حتميات حضارية وثقافية، وهكذا قل في كل فعل تاريخي آخر.

والحقيقة، إن المرء ليعجب حينما يطلع على تاريخ الإسلام، ويعرف كيف انتشرت الدعوة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية، ثم تلتها الفتوح التي وضعت في حوزة العرب، مساحات واسعة من العالم المتحضر، في العصر الوسيط، في خلال أربعين سنة هجرية؛ ويتساءل عن هذا الفعل المبدع، الذي كان له هذه القوة الرائعة، في جعل العرب يلتفون حول قيادة واحدة، تمكّنهم من الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها، فتسقط الدول في أيديهم بما يشبه السحر. ثم يوازن بين ما فعلوه في منتصف القرن السابع الميلادي، وما فعله أحفادهم في العصور الحديثة، حينما وقعوا فريسة للاستعمار الاوروبي، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فهل هؤلاء أحفاد أولئك؟ وإذا كانوا حقاً أحفادهم، فكيف وقفوا عاجزين أمام جيوش الاوروبيين؟ هل استفذ الفعل المبدع، الذي فتح به أجدادهم العالم، كل إمكاناته؛ فتحوّلوا إلى حاصل هذا الفعل، إلى حتمية تحتاج إلى من يحركها بفعله، وهي عاجزة بنفسها عن الحركة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل أنساهم الاوروبيون بفعل مبدع كانت له قوة السحر، فعجزوا عن العمل تجاه سحره وأصبحوا حتمية من حتمياته؟. ولكن هؤلاء الاوروبيين سبق لهم أن أتوا بلاد المسلمين في حروب صليبية، ثم ارتدوا عنها خائبين مهزومين أمام قبس من الفعل الاسلامي، في أيام صلاح الدين الايوبي. لقد كان الفعل الاسلامي هنا جزئياً إذا قيس بالفعل الاسلامي الكبير؛ ومع ذلك رد الصليبيون عن ديار الإسلام، لأنهم لم يكونوا قادرين بعد على الفعل الاوروبي الذي استعمر أكثر بقاع العالم فيما بعد.

إن هذا وذاك يضعاننا وجهاً لوجه، أمام السؤال عن حقيقة الفعل الذي تتمكن به أمة أو مجموعة من الأمم، من أن تقوم في التاريخ - بعد أن لم تكن شيئاً - بما يشبه المعجزة الحضارية؛ ثم تتراجع بعد قيامها بدورها التاريخي، حتى لكأنها ليست هي التي أبدعت الحضارة التي أبدعتها، فتعود إلى ما يشبه حضارياً ما كانت عليه من قبل، لولا بقايا آثار من الحضارة التي اندرست معالمها، والتي ليست سوى حتميات خَلْفها الفعل المبدع وراءه.

لكي نفهم ذلك، لا بد لنا من أن نتعرض إلى بدايات الصراع، منذ قيام الدعوة الاسلامية، مع مملكة الروم

التي كانت ممثلة لأوروبا بالنسبة إلى المسلمين، في ذلك الحين. وهنا نجد أن الفعل المبدع الذي قامت به روما في التاريخ، والذي آل إلى قيام الدولة البيزنطية وريثة لها في ما يعادل نصف الامبراطورية الرومانية، كان استنفد إمكاناته، وتحول إلى حتميات لا تستطيع الثبات أمام الفعل الاسلامي. ولكننا سنرى أن المصير الذي انتهى إليه الفعل الروماني، هو المصير الذي لقيه الفعل الاسلامي، حين تحول إلى مجرد حتمية لم تثبت أمام الفعل الاوروي، ولا سيما بعد أن قضى العرب ردها طويلاً من الزمن، في أسر القوقعة العثمانية.

١ - بدايات الصراع

إن الرجوع إلى بدايات الصراع بين المسلمين والعالم الاوروي لا بد من أن يجعلنا نفق قليلاً عند وضع الدولة البيزنطية، منذ بدء الدعوة الاسلامية؛ وعندئذ، سنجد أن الدولة الجديدة التي انشقت عن الدولة الرومانية في القرن الرابع الميلادي (٣٣٠ م)، قد أخذت تتبعد ابتعاداً كبيراً عن الفعل الابداعي الذي بدأ عام (٢٧٢ ق. م) بقيام الجمهورية الرومانية على اتحاد كبير يضم كل شبه الجزيرة الايطالية جنوب «جنوا»، والذي أدى بروما إلى السيطرة على عالم البحر المتوسط في خلال مائة وخسين سنة^(١). كان هذا الفعل يتلخص في الفضيلة، وهو الذي جعلهم يبرزون على مسرح التاريخ في العالم القديم. والحقيقة، فقد كان أكبر ما يقدره الرومان «الفضيلة»؛ وأعني بها كل المناقب التي تخلق الرجل الطيب، والمواطن الصالح، وهي: الشجاعة، والشعور بالواجب، والشرف، والوفاء، وحب الوطن والأقربين^(٢).

لا شك أن هذا الفعل المبدع، كان تحول إلى حتمية بالتحلال الامبراطورية الرومانية وبانفصال جزئها الشرقي عنها. وبهذا الصدد يقول ستيفن رنيمان في حقيقة الدولة البيزنطية: «دامت الامبراطورية المستصلحة التي استهلكت عهدها في الحادي عشر من مايو ٣٣٠، ألفاً ومائتين وثلاثة وعشرين عاماً وثمانية عشر يوماً. وفي كل هذه القرون الطويلة، ظل عامل واحد ثابتاً لا يتغير في كل أرجاء أوروبا الدائمة التغير: هو أن امبراطوراً رومانياً كان يحكم في القسطنطينية حكم العظيمة الاوتوقراطية. وكان الامبراطور في تلك الامبراطورية المحور الذي يدور عليه كل شيء. لذا، فمن الطبيعي والمناسب إلى أقصى حد، أن يُقسّم تاريخها حسب الأسر المالكة التي تعاقبت على العرش»^(٣).

وهكذا نرى أن الركود كان جائئاً على هذه الدولة، حتى انحصر تاريخها في تعاقب الأسر التي قامت على حكمها. وهذه الصورة إذا كانت تعبر عن شيء، فمن الحتمية التامة التي آل إليها الفعل الروماني المبدع. ولكنها ربما كانت حتمية منسجمة فيما بينها، قبل أن تتجه إلى الفوضى، حينما كانت الدعوة الإسلامية بدأت في شبه الجزيرة العربية. لقد كان حكم فوقاس (٦٠٢ - ٦١٠) كابوساً رهيباً من الفوضى الهدامة والظلم الممزق للدولة والغزوات الخارجية والثورات والفتن الداخلية: حتى أقلع في النهاية هرقل ابن حاكم ولاية افرقية إلى

القسطنطينية منقذاً للبلاد، وأنشأ أسرة مالكة دامت خمسة أجيال. ويتولّى هرقل الحكم، تتحول وجهة الامبراطورية الرومانية نهائياً شطر الناحية البيزنطية البحث؛ وقد رثمت عليها حرب قاتلة طويلة الأمد مع فارس^(٤).

وفي الوقت نفسه، قامت الدعوة الإسلامية. ويقول المؤرخ نفسه في قيامها: «حدث في بواكير القرن، أن قبائل المنطقة الوسطى ببلاد العرب، فازت بالوحدة السياسية، والالهام الديني، على يد رجل اسمه محمد. وكان جذب بلادهم يضطرمهم بين الفينة والفينة إلى التوسع الدوري. والآن وقد صارت لهم هذه القوة الجديدة، وهذه الحتمية المتوقدة انفجروا كالمرجل على العالم المتحضر. ففي ٦٣٤، غزوا فلسطين أول مرة؛ وفي ٦٣٦، شتوا، بمعركة عند نهر اليرموك، الجيش العظيم الذي تمكن هرقل من جمعه من شتى أرجاء امبراطوريته المكدودة. وبذلك أصبحت سورية بأكملها تحت رحمتهم؛ وفي ٦٣٧، سحقوا بالقادسية جيوش الساسانيين؛ وما لبثوا بعد ذلك بأربع سنوات، أن قضوا نهائياً على مملكة فارس بمعركة نهاوند؛ وفي ٦٣٨ سلمت لهم بيت المقدس؛ ثم غزوا مصر في ٦٤١، ولم يحاول أهلها الزنادقة المضطهدون المرهقون بالضرائب، أن يحافظوا على سيادة الامبراطور. لذا رحب الناس في سورية ومصر على السواء، بتغيير السيد، معتبرين عقيدة الاسلام الدينية، أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية؛ ولم تقاوم العرب غير الاسكندرية وحدها، ولكن لم يلبث ذلك الحصن الحصين للهلينية أن سقط نهائياً في ٦٤٧»^(٥).

وإذا تأملنا كلام هذا المؤرخ في البيزنطيين أولاً، وفي المسلمين ثانياً، تبين لنا: من ناحية، فوضى الحتميات المتصارعة في الامبراطورية البيزنطية، ومن ناحية أخرى، تماسك الفعل المبدع لدى المسلمين، في توجهه نحو نشر التعاليم الاسلامية، ولهذا كان لا بد لعجبنا من أن يزول ونحن نتأمل الصدام الذي وقع بين الروم البيزنطيين والعرب المسلمين؛ فالأمر لم يكن مقتصرأ على عدد الجيوش وعدتها، بل كان يتجاوزهما إلى الارادة التي توجه هذه الجيوش. إن عدد الجيوش وعدتها حتميات بشرية ومادية ليس لها من قيمة في الحرب غير الحرية المبدعة التي توجهها وتحولها، من حتميات مفككة لا رابطة بينها، إلى فعل متماسك خلاق.

وهكذا نرى أن بدايات الصراع بين المسلمين والبيزنطيين (الممثلين لأوروبا بالنسبة إلى المسلمين في ذلك الحين)، كانت بين الفعل الإسلامي والحتميات البيزنطية. وهيئات أن تثبت حتمية أمام الفعل، ولا سيما إذا كان مبدعاً.

٢ - ما قبل الحملات الصليبية

لعلّ الهجمات الصليبية هي التي وضعت العالم الإسلامي أمام أول امتحان رهيب له؛ ولكن الكلام على

الحروب الصليبية يكون سابقاً لأوانه، إذا لم نعهد له بوضع العالم الإسلامي منذ بدء الفتوح حتى قيامها . وما يهنا الآن، هو أن نتبع هذا الفعل المبدع الخلاق، لنرى كيف استمر من ناحية، وكيف استنفد امكاناته شيئاً فشيئاً من ناحية أخرى .

ولكن، ما هذا الفعل الاسلامي المبدع؟ إننا لن نجانب الحقيقة، إذا قلنا: إن البحث عن قيم جديدة، يمكن من خلالها تغيير العالم، من خلال فهمه على حقيقته . ونعتقد اعتقاداً جازماً، إن هذا ما كان يشغل نفس النبي وهو يتعبد في غار حراء، وهذا ما عبر عنه الدكتور محمد حسين هيكل، حين قال: « وهو لم يكن يطعم في أن يجد في قصص الأخبار، وفي كتب الرهبان، الحق الذي ينشد، بل في الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها؛ وفي الصحراء ساعات لهبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع، إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم، بلباسها الندي؛ وفي البحر وموجه، وفي ما وراء كل ذلك، مما يتصف بالوجود، وتشمله وحدة الوجود . في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته، ليتصل بهذا الكون، وليخترق الحجب إلى مكنون سره . ولم يكن في حاجة إلى كثير من التأمل، ليرى أن ما يباشر قومه من شؤون الحياة، وما يتقربون به إلى آلهتهم، ليس حقاً . فها هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن أحدٍ غائلة شرٍ يصيبه! »^(٦) .

ذا كم هو الفعل الاسلامي المبدع: البحث عن الحقيقة، والسعي إلى جعل الحياة الدنيا صورة من صورها، حيث تتحد الحقيقة بالخير، سواء أكان خير الفرد أم خير الجماعة أم خير الانسانية . وقد امتلأت نفس النبي بهذه الحقيقة - الخير، ووهيها حياته كلها . ولهذا لم يكن عجباً، حينما أتاه عمه أبو طالب يسأله أن ينتهي عن شتم قريش، وتسفيه أحلامها، وسب آلهتها، أن نسمعه يقول له: « يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته » والحقيقة، ففي هذه الكلمة، كانت تكمن كل قسوة الفعل الاسلامي، التي أدت إلى اعتناق سكان شبه الجزيرة العربية الاسلام، وانتشاره خارجها .

هذا الفعل: طلب الحق من أجل الخير، والقيام بالخير لأنه الحق، هو الذي تابعه الصديق أبو بكر، والذي تلخصه خطبته القصيرة جداً، والجامعة المانعة، التي ألقاها في بيعة السقيفة، قال: « أيها الناس! إني وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني: الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى آخذ الحق له، إن شاء الله؛ والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه، إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله، إلا قوم ضربهم الله بالذل؛ ولا تشيع الفاحشة في قوم قط، إلا أعظمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم

يرحمكم الله» (٧) .

وإذا نحن أنعمنا النظر في هذا الكلام، وجدناه دعوة إلى الحقيقة: (الصدق أمانة والكذب خيانة)، والعدالة: (الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له... والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه)، والواجب: (لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل)، والفضيلة: (ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء)؛ ولكن ذلك من خلال تعاون الخليفة والناس: (فإن أحسنتم فأعينوني، وإن أسأت فقوموني)، وهو تعاون ضمن تعاليم الله ورسوله: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم)، واعتراف من الخليفة بأنه ليس خير الناس، وهذا في التحليل الأخير: تطبيق للحقيقة - الخير، التي امتلأت بها نفس أبي بكر، أسوة برسول الله.

وهذا بالذات ما تابعه الخليفة عمر بن الخطاب، وبدل عليه كلامه حينما استُخلف، فقد قال: «إنما مثل العرب مثل جل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده. وأما أنا - فارب الكعبة - لأحلنهم على الطريق» (٨).

وإذا تأملنا هذا الكلام، وجدنا أنه تصميم على متابعة الطريق الذي شقه الفعل الاسلامي في عهد النبي، والذي استمر شقه في عهد أبي بكر، والذي وجد عمر أنه لا بد من الاستمرار فيه، لنشر تعاليم الحق والخير. وقد بدا هذا واضحاً في الفتوح التي تحققت في عهده، كفتح العراق وفارس والشام وفلسطين ومصر.

ولكن هذا الفعل الصافي ما لبث أن لحق به شيء من الكدورة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، لا لنقص في إيمانه وتقواه، بل لبلوغه السبعين حينما آلت الخلافة إليه، مما أعجزه عن متابعة الفعل الإسلامي؛ لقد كان سهلاً ليناً، فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم، وامتلاك الضياع فيها، وترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون؛ وقد أباح لأعلام قريش أن يشيدوا القصور في الولايات الاسلامية المفتوحة، كالعراق والشام ومصر، كما سمح لهم بأن يتبدلوا بأموالهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار؛ فخرجوا من الحجاز، وأنشأوا لأنفسهم ارسطراطية دينية، سداها المال ولحمتهما السبق في الاسلام وصحبة الرسول (٩)؛ عدا محابة ذوي قرباه، فقد عزل ولاية عمر عن الأمصار، وولاه أقرباءه ومن بينهم وبينه صلة (١٠).

وهذا مخالف لتعاليم الاسلام، الذي شاء أن يصرف الناس إلى الحق والخير والعدل. وهو في حقيقته نكسة، أصابت الفعل الاسلامي الذي كان يطلب الحق من أجل خير الناس كافة. ولهذا لم يطل الأمر بالخليفة عثمان حتى قُتل، وقام ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب خليفة من بعده، ولكن الفتنة كانت تلوح بيديها!

حاول علي بن أبي طالب أن يرد للفعل الاسلامي صفاءه، فبادر بعزل الولاة الذين ولّاهم عثمان، واسترد

الاقطاعات التي كان منحها بعض بطانته والمقرّبين من أهل بيته إلى بيت المال، واتبع في توزيع الارزاق، القواعد التي سنّها عمر^(١١).

ولكن هذا لم يؤدّ إلى استرداد الفعل الاسلامي صفاءه، بل إلى انقسامه وتشعبه. فقام حزب عشان وحزب علي، وكل يدعي أنه صاحب الحق؛ ولما قامت الحرب بين علي ومعاوية، ورُفعت المصاحف وقبل علي التحكيم، انقسم حزب عليّ إلى شيعة وخوارج ومرجئة. وحينما اغتيل علي في الكوفة، وآل الأمر الى معاوية، تحوّل الفعل الإسلامي إلى فعل سياسي، وإن ظل في ظاهره هو الفعل الإسلامي.

ونحن نرى أن الفعل الاسلامي - في عهد معاوية - فقد صفاءه، لأنه لم يعد تطلعاً إلى الحق في سبيل الوصول إلى الخير؛ فقد أصبح هم معاوية الأول تثبيت دعائم ملكه، باستتباع الاتباع بالرشوات والهبات والصلوات. ومع ذلك، استمرت الفتوح الاسلامية، فتم فتح رودس وبعض الجزر اليونانية وبيكند (بخاري) وإفريقية (تونس) وبلاد المغرب.

وظل هذا شأن الدولة الأموية بعد معاوية، حتى قامت الدولة العباسية، حيث تشعبت الأحزاب السياسية والفرق الدينية، وخالطتها الشعوبية، وقامت الثورات والفتن. وهذا استنفد الفعل الإسلامي إمكاناته، وخضع للحتميات المختلفة المتنوعة التي كانت تصادفه يوماً بعد يوم؛ فتشعب الفعل الواحد إلى أفعال مختلفة، بل حتميات مختلفة؛ لأن الأفعال حينما تفقد حركانيتها، تصبح حتميات، ويكون التصادم بينها تصادماً بين حتميات. وقد بلغ هذا الوضع حده الأقصى، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حينما انقسم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة، يكيد بعضها لبعض، ولا تربطها فيما بينها إلاّ رابطة إسمية بالخلافة العباسية ببغداد. وهكذا فقد الفعل الاسلامي معينه الخلاق الذي أتاح له في فترة من الفترات، فتح العالم المتحضر.

٣ - الحروب الصليبية

حينما أتى الصليبيون إلى بلاد الاسلام، كان الفعل الاسلامي فقد امكاناته، وتشعب إلى أفعال ضعيفة متصارعة بمحتمياتها الجزئية المختلفة. ولم يكن حال الصليبيين بأفضل من حال المسلمين، فالفعل الروماني الذي أدّى إلى قيام الامبراطورية الرومانية كان هو الآخر استنفد إمكاناته المبدعة، وتحوّل إلى أفعال جزئية تلاشي حتمياتها بعضها بعضاً.

والحقيقة، فقد انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى امبراطوريتين: شرقية وغربية. أما الشرقية، فهي الامبراطورية البيزنطية التي كنّا نتحدثنا عنها؛ وأما الغربية، فهي التي عرفت بالامبراطورية الرومانية المقدسة، وهي التي قامت بالحروب الصليبية لاسترجاع بيت المقدس. وعندئذ، بدا أن شعوب هذه الامبراطورية المفككة

تستعيد وحدتها، وتسير نحو الشرق تحذوها غاية واحدة.

بيد أن الصفة الدينية التي بدأت بها هذه الحروب، والتي أعطتها وحدتها، كانت مظهرًا خادعًا، سرعان ما انكشف عن مطامع شخصية، ومكاسب مادية، ونزعات قومية، ومصالح اقتصادية. وهذا اتضح أن الصليبيين لم يكن يسيرهم فعل واحد، أو تجذبههم غاية واحدة، بل كانت تحركهم أفعال متضاربة، كثيرًا ما كان بعضها يقف عائقًا دون بعض. بل إن الفعل الديني الذي بدا فعلاً مسيحياً في بداية الأمر، سرعان ما تبين أنه لا يعرف من روح المسيحية شيئاً، وأنه على نقيضها تماماً: فالفعل المسيحي - وجوهره المحبة - انقلب إلى فعل عدواني جوهره الكراهية. لقد كان في حقيقته رد فعل على احتلال السلاجقة بيت المقدس وانتزاعه من أيدي الفاطميين، وما تلا ذلك من صعاب وُضعت في وجه الحجاج المسيحيين الآتين من أوروبا، بعد أن كانوا يتمتعون بكثير من التسهيلات إبان حكم الفاطميين. وهذا الصدد، يقول المؤرخ الأستاذ حسن إبراهيم حسن، محدداً أحد أسباب الحروب الصليبية: «ظهر السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التي انتزعوها من الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وهددوا القسطنطينية، وانتزعوا بيت المقدس من الفاطميين. وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس في أمنٍ وطمأنينة، فلَمَّا جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد، وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين، في العصور الوسطى، يعتقدون أن الحج لبيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية»^(١٢).

ومما يؤيد أن الحروب الصليبية لم تكن صادرة عن فعل تنظيمي موحد، أن بطرس الناسك، بعد إعلان الجهاد، جمع شردمة من الغوغاء، رجالاً ونساء، وسار بهم إلى فلسطين^(١٣)، قبل أن تبدأ الحملة الصليبية الأولى؛ وأن جيوش الصليبيين في الحملة الأولى، لم يكن لها قائد يجمع شملها ويوحد كلمتها، وأن الزعامة عهدت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد، وأغلبهم من فرنسا؛ ولم تكن لهم خطة مشتركة تجمع بينهم، فعمل كل منهم مستقلاً عن الآخر^(١٤).

بيد أنهم فضلاً عن ذلك، كانوا في فوضى من أمرهم، لا يحترمون تعاليم دينهم ذاتها، ولا يحفظون حتى لخليفهم عهداً، فقد عاهدوا ملك الروم على أن يسلموا إليه أول بلد يفتحونه؛ ففتحوا مدينة نيقية، ولم يسلموها إليه، وكانت بأيدي السلاجقة الأتراك، فخالفوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم. ولَمَّا جاءوا معرة النعمان، قتلوا - على رواية ميسمو - جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع، المختبئين في السرايب، وأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات. وكانت المعرة من أعظم مدن الشام، وإفائها سكان الأطراف بعد سقوط انطاكية يعتصمون فيها. وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل في المسلمين، حتى هلك منهم عشرات الألوف، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد...

قال ميشو: تعصَّب الصليبيون في القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير، حتى شكّا منه المنصفون من مؤرخيهم، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض، ويجرونهم في الساحات، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين. ودام الذبح في المسلمين أسبوعاً، حتى قتلوا منهم - على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب - سبعين ألف نسمة؛ ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح، فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأوا إليه، وأهلكوهم كلهم بالنار^(١٥).

ولا بأس أن نضيف إلى هذا شهادة مؤرخ غربي. يقول ل. ج. شيني: «وفي السنة التالية، التقت في القسطنطينية أربعة من جيوش الفرسان الآتية من الغرب بقيادة أمراء فرنسيين... تحت الرايات الصليبية، وفي أبهة دروع الزرد، عبروا البوسفور إلى آسيا الصغرى، ومن ثم ساروا محاربين شرقاً وجنوباً، وهم يكابدون الجوع والعطش والمرض والجراح والموت؛ واستولوا على انطاكية بعد حصار دام تسعة شهور. وبعد قرابة أربعة أعوام من بداية الحرب، شق من بقي منهم طريقه عبر جسر خشبي أرضي من برج حصار عال، فوق معقل بيت المقدس؛ وبعد أن استولوا على المدينة، أعملوا الذبح لا تأخذهم فيه رحمة، ولم يستحيوا الشيوخ والنساء»^(١٦).

كل هذا، يجعلنا نرى في الحروب الصليبية - بمحلاتها الأربع - سلسلة من الختميات التي لا يتحكم بها فعل، وهذا يوضح لنا لماذا ارتدت خائبة خاسرة على الرغم من ضخامة جيوشها، كما ترتد أمواج المحيط عن صخور الشاطئ. لقد كانت الثلاث الأولى موجهة ضد العالم الإسلامي، أمّا الرابعة فقد غيّرت وجهتها، واتجهت إلى مدينة البندقية المسيحية، فكانت فضيحة على حد قول المؤرخ الغربي ل. ج. شيني^(١٧).

بيد أن المسلمين لم يكونوا أحسن حالاً من الصليبيين، فقد كانوا مثلهم متفرقين يصدر عن أفعال كثيرة متضاربة، وتنتهي أفعالهم - بما هي كذلك - إلى أن تصبح ختميات يقف بعضها في وجه بعض، لقد كان الفعل المبدع الذي انطلق به أجدادهم، استنفد امكاناته في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حيث تحوّل العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة متعددة مستقلة لا تربطها بالخليفة في بغداد إلا رابطة اسمية؛ فكانت تكتفي بالخطبة له في المساجد، وتبعث له بمال معين كل سنة، لا خوفاً منه، بل استجلاباً لرضى العامة. ومع ذلك، فقد عاملوا الصليبيين معاملة مثالية، حينما انتصروا عليهم؛ فقد كان في القدس - لما استرجعها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين - مائة ألف صليبي، منهم: ستون ألف راجل وفارس، سوى من تبعهم من النساء والأطفال؛ فأبقى صلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيراً، وناذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس؛ واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة

دنائير، وعلى كل امرأة خمسة، وعلى كل طفل دينارين. وعجز بعضهم عن دفع هذه الفدية، فأدى الملك العادل، أخو صلاح الدين، فدية عن ألفي صليبي، واقتدى به صلاح الدين نفسه، فأعفى كثيرين من هذه الغرامة، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضتهم من الذهب والفضة، وعامل نساء الافرنج معاملة لطف وظرف، وسهّل سبيل الخروج للمكتين عظيمتين بما معها من جواهر وأموال وخدم، ورخص للبطريك الأكبر أن يسير بأموال البيع وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون من فتوحهم^(١٨).

٤ - نهاية الأندلس

هذا في المشرق، أمّا في الأندلس فكان الأمر أسوأ بكثير. إذ إن الانقسام الذي انتهى إليه الفعل الاسلامي في الشرق، كان قائماً في الأندلس منذ فتحها الامويون على يدي طارق بن زياد. فقد تعاقب على الأندلس منذ فتحها أيام الأمويين عشرون والياً، كانوا أمراءها وولاة الحرب فيها، يلونها من قبل بني أمية في المشرق، أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر؛ والفتن فيها قائمة لبعده الأندلس من مقر الخلافة في دمشق، حتى إذا فتحها عبدالرحمن الداخل فتحاً ثانياً، وصَفَتْ له ولأولاده من بعده، ساقوا الإمارة، ثم الإمامة أو الخلافة في أبنائهم على الغالب، وترسموا خطى أجدادهم في المشرق^(١٩).

وهكذا، نجد أن الفعل الاسلامي المبدع لم يصل إلى الأندلس، ممّا جعله مسرحاً للفتن. والحقيقة، لقد كان هذا الفعل ذاخلة شيء من الفساد، حينما قام حكم الأمويين في دمشق على يدي معاوية بن أبي سفيان وخلفائه؛ وكان لا بد له من أن يفسد أكثر فأكثر، باتساع المسافة بين الشام والأندلس، وبامتداد الزمان بين خلافة معاوية في دمشق وحكم عبدالرحمن الداخل في الأندلس. ومع ذلك، فقد استطاع هذا الأمير الأموي أن يقيم حكماً ثابت الدعائم، مستخدماً حكمته وما كانت تحمله من إهام الفعل الاسلامي المبدع. ولكن هذا الأمر لم يدم أيد الدهر، فسرعان ما دب الفساد إلى الحكم في الأندلس، وأخذت الحتميات المتضاربة يفني بعضها بعضاً؛ فقامت في كل جهة دولة، وعرفت هذه الدول بدول الطوائف. ففي أوائل المائة الخامسة انقرضت خلافة الأمويين في الأندلس، فتقاسم ملوك الطوائف الولايات، وذهب ذاك الوقار الذي يتمتع به في الأغلب، من تسلسل فيهم الملك والإمارة كابراً عن كابر^(٢٠). وأصاب الأندلس إدماراً بعد ذلك الاقبال، فسقطت سياسة أهلها، وإن لم تسقط مدنيتهم؛ تفرقت كلمتهم حتى أمسى بعض عمال الولايات وقضاتها يحاولون أن ينعتوا بالملك والأمير، لاستبدادهم بالأمر دون من ولأهم، بل كثر في بعض أدوارهم الطامعون من أعياء الخلافة، والراغبون في التلقّب بأمر المؤمنين^(٢١). يصف عبدالواحد المراكشي ذلك، فيقول: «وأما حال سائر الأندلس، بعد اختلال دعوة بني أمية، فإن أهلها تفرّقوا فرقاً، وتغلّب في كل جهة متغلّب، وضبط كل متغلّب ما تغلّب عليه، وتقاسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمّى بالمعتضد، وبعضهم تسمّى بالمأمون، وآخر بالمستعين والمقتدر

والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية... فأولهم في الربع الشرقي رجل اسمه سليمان بن هود، تلقب بالمؤمن، وتلقب ابنه بالمقتدر، وتلقب ابنه بالمستعين. كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية: طرطوشة وأعمالها، وسرقسطة وأعمالها، وافرغة، ولاردة، وقلعة أيوب... ويجاور بني هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبدالعزيز، يكنى أبا مروان، قديم الرياسة، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته؛ ولا أعلم له لقباً، كان يملك بلنسية وأعمالها. وكان يلي الثغر رجل آخر، يقال له أبو مروان ابن زريق، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة. وكان الذي يملك طليطلة وأعمالها: الأمير أبو الحسن يحيى ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون. وأبو الحسن هذا، أقدم ملوك الأندلس رياسة، وأشرفهم بيتاً، وأحقهم بالتقدم، تلقب بالمأمون، كان أبوه اسماعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل، واستبد بملكها أول الفتنة... وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر: جهور بن محمد ابن جهور المتقدم ذكره ونسبه، إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة اسماعيل بن ذي النون... وكان يملك اشبيلية وأعمالها: القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حود وابنيه محمداً والحسن... وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وعاد: البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمنا. وتغلب على المرية وأعمالها: زهير العامري الخادم، ثم ملكها بعده خيران العامري أيضاً الخادم، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح الملقب بالمعتصم؛ فلم يزل إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتوفي، في شهور سنة ٤٨٤. وكان يملك دانية وأعمالها: مجاهد العامري، أصله رومي مولى لأبي عامر محمد ابن أبي عامر، ثم ملكها بعده ابنه علي بن مجاهد، وتلقب بالموفق... وكان يملك الثغر الذي من الجهة المغربية من الأندلس، وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم: ابن الأفطس الملقب بالمظفر، ذهب عني اسمه. ثم كان له ابن اسمه عمر، يكنى أبا محمد، تلقب بالمتوكل على الله، كان يملك بطليوس وأعمالها، وبابرة وشتريين والاشبونة»^(٢٢).

وهكذا، قُسمت الأندلس بعد سقوط الأمويين إلى تسع عشرة مملكة، منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطلطلة ولشبونة، وكان ذلك بعد ذهاب الحكم من بني أمية سنة (٤٠٧ هـ). ولولم يتداركها ملك المغرب الأقصى ابن تاشفين أو آخر المائة الخامسة، لما بقيت في أيدي المسلمين إلى سنة (٨٩٧ هـ)؛ ولولم يبق في سنة (٦٣٥) رأس ملوك بني الأحمر، ويستولي على غرناطة، ويضم إليها بلداناً أخرى مهمة من أمهات مدن الأندلس، فيجمع الشمل، لكان المحتم انحلالها قبل الأوان^(٢٣). ويقول ل. ج. شيني: «وفي وقت سقوط القسطنطينية في يد المسلمين، لم يكن في يد المغاربة غير مملكة غرناطة الصغيرة؛ وهذه هاجها واستولى عليها في ١٤٩٢، الجيش المسيحي الكبير الذي

ضمّ فرساناً من المجلترا وفرنسا^(٢١) .

وهذا يبيّن مدى الانقسام الذي وصل إليه المسلمون في الأندلس، وكيف كان فعل كل حاكم يقف حتمية في وجه حاكم آخر. وإذا كان بنو الأحمر حلّوا محل الموحدين في غرناطة - بعد استيلائهم عليها منهم، وأقاموا حكماً إسلامياً رائعاً فيها، في خلال أكثر من قرنين ونصف القرن - فإن هذا لم يكن إلّا النّفس الأخير الذي يمسك الحياة قبل الموت، شأنه شأن الشمعة التي تسطع بضياؤها قبل أن تنطفئ.

٥ - الدولة العثمانية

بيد أن الفعل الاسلامي تحول إلى حتمية خالصة في قوقعة الدولة العثمانية. وقد أفاد العرب من هذا الوضع من ناحية، وأصابهم الضرر من ناحية أخرى: فهم قد احتموا في هذه القوقعة من مطامع الدول الغربية، ولكنهم بمجرد أن دخلوا فيها، اختفوا عن مسرح التاريخ وأصبح تاريخهم في هذه الحقبة ملحقاً بالتاريخ العثماني.

وإذا كان الأمر كذلك، كان لا بد لنا من أن نتعرّف إلى هؤلاء العثمانيين، إنهم اترك؛ وقد عرفت لفظة «ترك» أول مرة اسماً لأقوام من بداية آسيا الوسطى سنة (٥٠٠ م). وقد أقاموا في القرن السادس دويلات بدوية انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الأسود. لقد عاشوا على الخيل، فشرّبوا ألبانها وأكلوا لحومها، وامتطوا صهواتها، وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال، وكانت سرعة انتقالهم ميزة تفوقوا بها على خصومهم؛ وعندما بلغوا آسيا الصغرى عرفوا بالعثمانيين نسبة إلى جدّهم عثمان، وكانت البلاد تتركّب جزئياً على يد أنسابهم السلجوقيين الذين يعود نسبهم هم والعثمانيون، إلى قبيلة الغز^(٢٢).

وقد بقيت الدولة العثمانية، بعد تأسيسها سنة (١٣٠٠)، مجرد إمارة صغيرة، إلى أن استولى محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) على القسطنطينية سنة (١٤٥٣)؛ وبذلك غدت وريثة الامبراطورية البيزنطية، وتمكنت فيما بعد من ضم عدد من الدول العربية إليها، وقد بلغت أوج عزها في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وأصبحت إمبراطورية؛ وفي عهده تم الاستيلاء على الجانب الأكبر من هنغاريا، ومحاصرة فيينا، واحتلال جزيرة رودس. ثم دخلت أقطار شمالي افريقيا - ما عدا مراکش - في حوزة هذه الامبراطورية^(٢٣).

وهكذا وقعت غالبية الدول العربية في حوزة الأتراك العثمانيين، وأصبحوا عاجزين عن الفعل على مسرح السياسة العالمية. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ألم تأخذ الدولة العثمانية - وهي الدولة الاسلامية - على عاتقها الفعل الاسلامي، لكي تتابعه؟ أو لم تكن امبراطوريتها المترامية الأطراف في آسيا وافريقيا وأوروبا استمراراً لهذا الفعل الذي انطلق من شبه الجزيرة العربية؟ هنا، لا بد لنا من أن نشير إلى أن الفعل الاسلامي فقد من قوته بمرور الزمن، وزايله صفاءه الذي بدأ به، منذ أن خرج خارج حدود الجزيرة العربية؛ وقامت الفتن

والثورات من ناحية والأحزاب والفرق المغالبة من ناحية أخرى، تفلّ من غربه. والحقيقة، أن الفعل الاسلامي فقد من قوته المبدعة منذ خلافة عثمان، الذي كدر صفوه بمشاغل الحياة الدنيا؛ وحينما آلت الخلافة إلى علي لم يتمكن من العودة به إلى ينبوعه الصافي، لقصر مدة خلافته، ولتحويل معاوية الخلافة إلى مُلك عضوض، ولوصول العباسيين إلى الملك بمساعدة الفرس، الذين كانوا يريدون الملك لأنفسهم، ثم لانتقسام السلطة إلى عدد كبير من السلطات سواء في الشرق أم الغرب؛ بل إن الحروب الصليبية في الشرق وحروب الاسترداد الاسبانية في الاندلس، لم تمكّن المسلمين من العودة إلى استلهم الفعل الاسلامي الخالص.

وحيثما قامت الدولة العثمانية، كان ميلادها في أرض بعيدة عن موطن الدعوة الاسلامية، فنمت وظهرت بعيدة عن الاسلام، ثم اتخذت الاسلام ديناً باحتكاكها بالمسلمين، فكان الاسلام شيئاً إضافياً إلى التركية، فتلونت به في الظاهر، ولم يغير في جوهر الفعل التركي شيئاً. والحقيقة، لقد كان الفعل الاسلامي - الذي بدأ بغار حراء، وانتهى بنزول القرآن، ورافقت سوره الأحاديث النبوية في شتى الموضوعات والمناسبات، وما لبث أن تفاعل مع الثقافات على اختلافها، من دون أن ينسى ذاته - شيئاً آخر غير الفعل التركي الذي كان فعلاً عسكرياً سياسياً في جوهره. يقول فيليب حتي في العثمانيين: «إن فلسفة العثمانيين السياسية، كما فهمها الوالي العادي على الأقل، كانت تقوم على أن الشعوب المغلوبة من غير المسلمين، كانوا «رعية»، «يتعهدهم الراعي» لمنفعة الفاتح. وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية، كان يعبر كذلك عن المداير التقليدية التي جالت في أذهان الأجيال التي انحدرت من القبائل البدوية في آسيا الوسطى؛ فالشعوب المغلوبة في رأيهم بمثابة المواشي الانسانية، ولذلك اقتضى الأمر أن «يحبوا» و«يجزوا»، وإنما تيسّر لهم أن يعيشوا كما يبتغون، ما داموا لا يسبّبون المتاعب. ولما كان أكثرهم من الفلاحين والصناعيين والتجار، لم يطمحوا إلى الانخراط في سلك الجندية، ولا نزعوا إلى تولي المناصب المدنية. لكن «القطيع» كان بحاجة إلى «كلاب حراسة»، وكان هؤلاء المجندون يخضعون لمنهج عنيف في التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة، ويمرون في مباريات شاقة، وغربة دقيقة؛ فمن أبان عن فطنة وتوقد ذهن، أعد من جديد لتولّي المناصب الحكومية. ومن تميّز بالقوة الجسدية، وُجّه إلى الخدمة العسكرية، وكان أصلهم يُحوّل إلى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية. وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في الامبراطورية في أول الأمر، ينتقيان منهم على سبيل الحصر، فرؤساء الوزراء والوزراء وأمرأ البحر والقواد وحكام الأقاليم، جميعهم كانوا فيما سبق عبيداً، وكذلك بقوا فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن، تحت رحمة سيدهم السلطان، الذي ما تردّد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية. وليس في التاريخ المدوّن جهاز إداري آخر مواز لهذا الجهاز الغريب، فقد جعل بيت عثمان الأسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية، ووضع في يدهم سلطة مطلقة لإدارة الدولة، والدود عن حياضها» (٢٧).

صورة الدولة العثمانية هذه، تبين إلى أي حد كانت فلسفة العثمانيين قائمة على الحرب والسياسة؛ ولهذا لم يهتم العثمانيون بالأمور الثقافية، وفي هذا يقول محمد كرد علي: «ومن أهم ما قضى على مدنية العرب في عهد الترك، إهمال المدارس وامتداد أطماع الطامعين في استصفائها، ونزع وقوفها وأحباسها، وفي الخطط التوفيقية. إن النظار في مدارس القاهرة تصرفوا في خلال ثلاثة قرون من العهد التركي على غير شروط وقفها؛ وامتنع الصرف على المدرسة والطلبة والخدمة، وانقطع التدريس بالكلية لكثرة الاضطرابات، وبيعت كتب المدارس وانتهبت، حتى آلت الحال ببعض المدارس الفخمة، والمباني الجليلة، أن أصبحت زوايا صغيرة، وزال بعضها جملة، أو صار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك. ومثل هذا، وقع في عاصمة الشام، فقد دخل الأتراك دمشق، وفيها أكثر من ١٥٠٠ مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة، ومدارس الطب، ومدرسة الهندسة، عدا الربط والخوانق والمستشفيات؛ وخرجوا منها بعد زهاء أربعة قرون، وليس فيها سوى بضع مدارس عامرة بعض الشيء، ولا تدريس فيها. هذا عدا ما كان من المدارس الجليلة في مدن الأقاليم، كالقدس وحماة وحمص وحلب وطرابلس وغيرها. وكلها أصيبت بما أصيبت به مدارس دمشق؛ وجميع هذه المدارس كان فيها خزائن كتب، وعامة المرافق، وأسباب الراحة والتشويق والاستفادة تامة. ومثل ذلك قل في مدارس العراق، ولا سيما الموصل والبصرة وبغداد؛ وناهيك بالمدرسة النظامية (٤٥٩ هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١ هـ) في بغداد»^(٢٨).

فأين الفعل التركي من الفعل الاسلامي الذي هضم الثقافات المختلفة السائدة حينذاك في البلاد المفتوحة، مثل الثقافة اليونانية والرومانية والهندية والفارسية... الخ؟ لهذا لا يمكن عد الفعل التركي امتداداً للفعل الاسلامي، ولا سيما أنه كان فعل تحرير لا فعل استعباد، فعل خير يعمم على الناس كافة، لا فعل «حلب» و«جز»، فعل تنوير لا فعل تجهيل...

٦ - الاستعمار الأوروبي

بينما كان العرب سجناء القوقعة التركية، كان الأوروبيون يجوبون أنحاء الدنيا بحثاً عن المستعمرات والثروات والقوة، دون أن يردعهم رادع، أو يحكموا مبدأ من المبادئ، غير الطمع والتسلط؛ ونحن إذ نقول ذلك، نستوحي مؤرخاً من مؤرخيهم، - ويحسن بنا أن نصغي إليه، على أنه شاهد من أهلهم - يقول: «وقد قضى الأوروبي أربعة قرون في الارتحال بجرأ إلى كل أجزاء الدنيا، يتاجر ويبحث عن أسواق، ويتسلط على قارات نصف فارغة، وعلى جزائر استوائية، ويعيش على الثروات الطبيعية للمناطق الاستوائية، كالسكر والقطن والأرز والبهار والشاي والقهوة والمطاط. والحكاية متنوعة، بطولية، فظيعة، قاسية كالحياة الانسانية ذاتها؛ إنها حكاية أمم متفرقة، ومغامرات متفرقة، وشركات تجارية متفرقة، وكنائس متفرقة، عدائية في بعض الأحيان، كلها يكافح بعضها بعضاً. وهذه المغامرة المتعددة النواحي التي صنعتها الشعوب البيضاء مع الشعوب السمراء

والسوداء والصفراء، مبعثها دوافع من كل صنف، ابتداء « من الجوع اللعين إلى البحث عن المذهب »، إلى حية نشر الدين الخالصة. لقد صدرنا حروبنا وضغائننا، هذا في حين أن الرومان عندما ملكوا امبراطورية برية كبيرة، كانوا غالباً ما يرسلون إلى الخارج خير رجالهم لحكم الأقاليم، بل إن أباطرتهم كانوا يعنون شخصياً بالمسائل الاقليمية. أمّا الأمم الأوروبية، فقلماً أرسلت سياسيتها البارزين ليحكموا في الخارج، وكانت مغامراتهم البحرية - إلى حد كبير - عفوية تعتمد على المصادفات»^(٢٩).

بهذه الروح، بدأت حركة الاستعمار الأوروبية ابتداء « من الجوع اللعين إلى البحث عن الذهب »؛ فكانت روح مغامرة وتجارة وكسب لأمم متفرقة، ومغامرات متفرقة، وشركات تجارية متفرقة، وكنائس متفرقة، يحمل بعضها العداء للآخر، وتسيرهم الضغائن والعداوة والحروب. لم يكن أصحابها من السياسيين البارزين، بل كانوا مغامرين تتحكم بهم عفويتهم المعتمدة على المصادفات؛ ولكي نفهم هذه الحركة الاستعمارية، سنأخذ المثال الذي ضربه ل. ج. شيني عن شركة الهند الشرقية، يقول: « كانت شركة الهند الشرقية الهولندية الشهيرة - التي طردت البرتغاليين من الشرق - كانت «دولة» في حد ذاتها تعلن الحرب وتعقد الصلح وتسك عملتها الخاصة، وتوفد ملاحين ذاتي الصيت، ليرودوا البحار الجنوبية، ويستكشفوا شواطئ استراليا وتسمانيا ونيوزيلندا. بل إن الاسطول الهولندي كانت له أسطوره المرعبة - حكاية الهولندي الطائر - وموضوعها سفينة مجهزة أحسن تجهيز رؤيت تنساق أمام العاصفة، وقد مات ملاحوها جميعاً بدءاً الجرب. وهذا منظر يرتعد له البحارة الذين يتأثرون بالخرافات»^(٣٠).

تلكم هي صورة الاستعمار الأوروبي كما صورتها اسطورتهم ذاتها، سفينة تجوب البحار حاملة الجرب إلى أنحاء العالم، من دون ملاحين يقودونها أو يوجهونها. وإذا كانت هذه حقيقته، فكيف قُدر لأصحابه أن ينتصروا على الشعوب، ومنها الشعوب العربية؟ لكي نجيب عن ذلك، لا بد لنا من النظر إلى الفعل الأوروبي، لمعرفة حقيقته.

إن فهم الفعل الأوروبي يرتد بنا إلى عصر الإحياء الأوروبي (عصر النهضة)، ففي ذلك العصر بدأ هذا الفعل يشق طريقه ويصنع تاريخ أوروبا، وحتى نفهم هذا الفعل حق فهمه، يمكننا أن نتخذ من كتاب ب. م. هولت «صانعو أوروبا الحديثة» دليلاً موجهاً. يتميز عصر النهضة بأنه عصر استكشاف، حاول فيه الأوروبيون أن يكتشفوا مجاهل العالم، كما كان محاولة للإصلاح الديني؛ فظهرت حركات إصلاحية دينية في عدد من البلاد الأوروبية. ولكنه كان، فضلاً عن هذا وذاك، محاولة ناجحة كل النجاح في إقامة العلم الحديث والتقنية الحديثة من ناحية، وإقامة الدولة القومية والحكومة الديمقراطية من ناحية أخرى^(٣١).

ونحن نرى إن رد الفعل الأوروبي إلى هذه العناصر صحيح إلى حد ما، وإن كان اغفل الفلسفة والتشريع،

وهما عنصران بارزان في الحضارة الأوروبية . قد يكون هذا راجعاً إلى أن الفلسفة هي عنصر جوهري في الفعل الاغريقي ، وأن التشريع عنصر جوهري في الفعل الروماني ، وأنها - بما هما كذلك - دخيلان على الفعل الاوروي . من وجهة النظر هذه ، ألا يكون العنصر الديني عنصراً دخيلاً على الفعل الاوروي ؟ المعروف ، أن المسيحية نشأت في فلسطين ، ثم انتقلت إلى أوروبا ، ولم تصبح ديناً رسمياً إلاّ حينما تنصّر الامبراطور الروماني قسطنطين . وهكذا تكون المسيحية عنصراً غريباً عن الفعل الاوروي ، وفد إليه من الخارج . وهذا يعني ، أن الفعل الاوروي ينحصر في فعلين هما : العلم - التقنية في مجال الطبيعة ، والقومية - الديمقراطية في مجال الدولة ، وقد انضاف إليهما الميل إلى الاستكشاف الذي أصبح استعماراً ؛ في حين ظلت الفلسفة تعمل مستقلة ، ولا تنفذ لا هي ولا الدين إلى الفعل الاوروي ، لترفعاه من مستوى الجزئية إلى الكلية .

وهنا يمكننا أن نرى في بادئ النظر ، أن الفعل الاوروي فعلٌ غني العناصر . ولكن إنعام النظر يرينا أن العناصر التي دخلت في تأليفه ليست أكثر من العناصر التي دخلت في الأفعال الاخرى ، وإنما هو كان فعلاً لم يكتمل بقيمة عليا توجهه وجهة واحدة . فالفعل الاغريقي كانت توجهه الحقيقة (الفلسفة) ، والفعل الروماني كانت توجهه الفضيلة (الاخلاق والتشريع) ، والفعل الاسلامي كانت توجهه الحقيقة - الخير (الدين) ؛ ولهذا كانت هذه القيم تضيف الوحدة على العناصر المختلفة التي يتكوّن منها الفعل . أمّا بالإضافة إلى الفعل الاوروي ، فرأينا أن الاستكشاف (وهو بحث عن الحقيقة ، بل الحقائق الجزئية) سرعان ما تحوّل إلى استعمار (استخدام الحقيقة من أجل النفع الشخصي) ، وقد وضع في خدمته العلم - التقنية من جهة ، والقومية - الديمقراطية من جهة أخرى ؛ فإذا العلم - التقنية ، أي الحقيقة الجزئية - الخير الجزئي ، والقومية - الديمقراطية ، أي الدولة القائمة على اساس القربى والتي تمنح الخير لذوي القربى جميعهم ، يأخذان وجهين غير وجهيهما بتأثير النزعة الاستعمارية ، فتصبح الحقيقة الجزئية سيلاً إلى الخير الجزئي ، أي استثماراً به دون الآخرين ، وتصبح الدولة القومية الديمقراطية ، امراطورية استبدادية ؛ وتظل الفلسفة والدين فعلين يرافقان الفعل الاوروي ، ولكن من دون أن ينفذا إليه ويغيّرا من طبيعته .

ذاكم هو الفعل الاوروي في جوهره ، وهو يبدو فعلاً واحداً في التجريد ، ولكن الناظر في التاريخ الاوروي سرعان ما يكتشف أنه أفعال كثيرة في التشخيص . ولهذا ظلّت القيم غريبة عنه ، على الرغم من أن أوروبا كانت تنادي بقم الحق والخير والجمال . ولكن ، من المؤسف أن نقول ، إن هذا ظل في مجال الأدب والفلسفة ، ولم يتطرّق الى الفعل السياسي الذي ظل مكيافلياً على الرغم من نقد مفكري اوروبا للمكيافلية .

والحقيقة ، لقد اندفعت هولندا واسبانيا والبرتغال وفرنسا وانكلترا - كل على حدها ، وبأسلوبها المستقل عن أسلوب الأخرى - في استكشاف العالم واستعماره حتى أنها كثيراً ما كانت تصطدم فيما بينها ، ويسطر بعضها على

بعض، من دون أن يكون ذلك من منظور قيمة من القيم، إلا إذا عددنا الاستعمار ذاته قيمة .

وكل هذا يشير إلى طابع واضح في الفعل الاوروي، وهو الاتجاه نحو الجزئيات، وما يتعلق به من روح الاثرة والانانية . وكان هذا الوضوح بارزاً في الحركة العلمية - التقنية، التي يمكننا أن نضعها في مقابل الحركة الاسلامية في توجهها نحو الحقيقة - الخير؛ ولكننا، إذا انعمنا النظر فيها، وجدنا بينها تلاقياً من ناحية، وافتراقاً من ناحية أخرى: إن العلم يبحث عن الحقائق الجزئية، فهو من هذه الناحية، يدخل في مملكة الحقيقة، وكذلك التقنية فهي تسعى إلى استحداث خيرات صناعية لم تكن، وهي تدخل بذلك في عالم الخير . ولكن الحقيقة كما تمثلها الفعل الاسلامي كانت حقيقة مطلقة، حقيقة الكون كله؛ وكذلك الخير الذي تصوّره الفعل الاسلامي كان خيراً مطلقاً، خير الناس كافة . ومن هنا كان الاختلاف بين الحقيقة - الخير والحقائق - الخيرات، أي العلم - التقنية، لقد كانت القيمة في الفعل الاسلامي مطلقة، وكانت في الفعل الاوروي نسبية، فهل بإمكان الفعل الاوروي أن يرتفع إلى مستوى الكلية ؟

إننا نعتقد أن ذلك ممكن، إذا تربّى ساسة أوروبا تربية فلسفية . والفلسفة ليست غريبة في أوطانهم، ولكنها تقتصر على المجال الثقافي وحده، ولا تنفذ الى الفعل السياسي، الذي يتأثر بالنزعة العلمية، والذي تسيّره روح التجارة والكسب فتدفعه إلى الاستزادة من المخترعات التقنية، والذي تدفعه روح المغامرة والحرب إلى الاستفادة من العلم والتقنية، في فرض السيطرة وإخضاع الشعوب . وقد انتبه إلى هذا الخطر فيلسوف كبير من فلاسفة الغرب، هو الفيلسوف البريطاني المتأمر، **الفرد نورث هوابتهد**، حين قال: « إن اضمحلال المثل العليا ينطوي على بدهة مخزنة لخيبة السلوك البشري، ففي مدارس القداماء، كان الفلاسفة يطمحون الى نقل الحكمة . وفي معاهدنا الحديثة، ينصب هدفنا المتواضع على تعليم الموضوعات . إن الانحدار من الحكمة الإلهية التي كانت هدف القداماء، إلى المعرفة الكتبية للموضوعات - هذا الانحدار الذي قام به المحدثون - ليدلّ على قصور تربوي أخذ به في خلال العصور »^(٣٢) .

وإذن، لا بد من العودة إلى المثل العليا، وهذه المثل العليا لا يمكن الوصول إليها من دون الفلسفة . ولكن المثل العليا لا يجب أن تبقى في حدود الحقائق النافعة والقابليات الذهنية الميكانيكية، ولهذا يعلّل هوابتهد: « ولكن، حينما تنحدر المثل العليا إلى مستوى العمل، يكون الركود هو النتيجة . فعلى وجه الخصوص، لا يمكننا أن نجد تقدماً، ما دمنا نتصور التربية العقلية وكأنها تقوم فقط على كسب القابليات الذهنية الميكانيكية، والتعبير المصوغة للحقائق النافعة؛ على الرغم مما هنالك من فعالية كبيرة نقوم بها، بين إعادات تنظيم لمخططات بحث لا هدف لها، في محاولة لإضاعة الوقت التي يمكن تفاديها . إنه لا بد لنا من أن نرى الأمر على أنه حقيقة لا مفر منها، وهي أن الله خلق العالم على هذا النحو، بحيث كان يضم من الموضوعات التي نرغب في معرفتها، أكثر مما

في استطاعة أيّ انسان أن يكتسبه . فما من أمل في مقارنة المسألة بتعداد الموضوعات التي يتوجّب على كل فرد أن يتمكّن منها؛ فهناك الكثير الكثير منها، وكلها لها صكوك تملّكها الممتازة. ربما كانت هذه الوفرة في الموضوعات من حسن الحظ، بعد كل شيء، لأن العالم يصبح مثيراً للاهتمام من جرّاء جهلنا السار بالحقائق المهمة، فما أنا متلهّف على غرسه في نفوسكم، هو أن المعرفة - على الرغم من أنها هدف رئيسي من أهداف التربية العقلية - لا تنفي وجود عنصر آخر أكثر إبهاماً، ولكنه أجلّ شأنًا، وأكثر سلطة في خطورته. إنه ما دعاه القدماء بـ «الحكمة»: إنك لا تستطيع أن تكون حكيمًا، من دون أساس من المعرفة. ولكن، بإمكانك أن تكتسب المعرفة بسهولة، وأن تبقى عارياً من الحكمة»^(٣٢).

وإذن، فالفعل الاوروي تنقصه الحكمة، ولكن الحكمة ليست غريبة عنه، بل تعايشه عن قريب، ولكنها لا تندمج فيه وتصبح مهمته وموجّهته. وهذا ما تفتقر إليه البشرية، ليكتمل انتفاعها بالحضارة الاوروبية؛ ولكن هذا لم يحدث حتى الآن، وظل روح الفعل الاغريقي مرفرفاً في سماء أوروبا، ولكنه لم يهبط إلى أرضها، ليندمج في الفعل الأوروي، ويطبعه بالطابع الانساني. والحقيقة، إن هذا هو الطريق الوحيد لخلاص البشرية، لأنه الفعل الأقوى في العالم، وما من فعل يمكنه أن يقف في وجهه. إذ إن الأفعال كلها تحولت إلى حتميات عاجزة أمامه. حتى الفعل الإسلامي غاب عن مسرح التاريخ، وما من قوة يمكن أن تعيده إلى الحياة، بل لو افترضنا عودته، فلا بدّ له من أن يمتص الفعل الأوروي وأن يرفعه إلى مستوى الحقيقة - الخير، ليستفيد من قوته العلمية - التقنية، ويعطيها نور الحقيقة - الخير؛ فيصبح العلم - التقنية حقائق - خبرات، تدور في فلك الحقيقة - الخير، التي هي ملك البشرية بأسرها.

خاتمة - الفعل والقيم

وبعد، ما الذي نستطيع أن نستخلصه من كل ما سبق؟ وما الدرس الذي يمكننا أن نتعلمه من تاريخ الصراع بين أوروبا والمسلمين: بين بيزنطة والاسلام، وبين الصليبيين والاسلام، وبين الإيبيريين والاندلسيين، وبين أوروبا الحديثة والعرب؟

يمكننا أن نرى منذ البداية، أن لكل أمة فعلاً تظهر به على مسرح التاريخ، فالرومان كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية الرومانية، والعرب كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية الاسلامية، والأتراك كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية العثمانية، والأوروبيون كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية، والامبراطورية الهولندية، والامبراطورية البرتغالية والامبراطورية الاسبانية. وإن هذا الفعل يكون مبدعاً في أول أمره، ثم يستنفد

إمكاناته ويتحوّل إلى جملة من الحتميات التي لا تثبت أمام الفعل، وإن قوة إبداعه تكون في القيم التي يحملها، وهي تتوحد في تأليف وحيد، يختلف بين فعل وآخر. ولهذا، كان كل فعل من الأفعال التي تحدثنا عنها، ينتهي إلى إقامة حضارة تظل قائمة حتى بعد استنفاد الفعل الذي أبدعها، إمكاناته كلها، ولكنها لا تثبت أمام فعل مبدع يتصدّى لها، ويجعلها من حتمياته. ولهذا انهارت الحضارة البيزنطية والحضارة الفارسية، حينما تصدّى لها الفعل الإسلامي، ولم تنهر الحضارة الإسلامية حينما اصطدمت بها الحتميات الصليبية، وإنما ارتدت عنها مجرد ارتداد، بعد اصطدامها بها، ولكنها انهارت أمام الفعل التركي، ودخلت في القوقعة العثمانية. وقل الشيء نفسه بالنسبة إلى الامبراطورية العثمانية، حينما اصطدمت بالفعل الاوروي.

بقي أن نتساءل عن مصير الفعل الاوروي: قلنا إنه أقوى الأفعال القائمة في وقتنا الحاضر، وما من فعل يستطيع أن يقارعه، إلّا ويتحوّل إلى حتمية من حتمياته. ومع ذلك، فهو يحمل مصيره المشؤوم في ذاته. ومن المؤسف أن مصير البشرية مرتبط بمصيره، إنه - كما قلنا - فعل واحد في التجريد، ولكنه أفعال كثيرة في التشخيص! ومن هنا كان وضعه المأساوي. إنه فعلٌ بدأ بأشكال مختلفة في دول وامبراطوريات مختلفة؛ وكلها متفرقة تقودها المغامرات وضروب الجشع والضغائن والعدوان، وتأخذ بالعلم والتقنية، وهما منبعا القوة الصناعية والحربية؛ لكن القيم العليا تعيش فيها على هامش القوة السياسية. وهذا وضع يعرضها للاختلاف فيما بينها، وللاصطدام من جرّاء ذلك. وبما أن القوة التي تمتلكها قوة هائلة، والتفرقة القائمة بينها أساسها الجشع والضعف والعدوان، فإن خطر الصدام بينها يؤدي إلى شرٍ مستطير؛ والويل لها وللإنسانية معها، إذا حدث هذا الصدام!

ولكن هناك أموراً قائمة على هامش الحياة الاوروبية السياسية، وهي تعد من التراث الأوروبي، ورثتها من الأمم الأخرى، واصبحت من حتمياتها، مثل: الثقافة اليونانية، والتشريع الروماني، والديانة المسيحية. فهل بإمكان هذه العناصر أن تنفذ إلى الفعل الاوروي، وترفعه من جزئيته وأنانيته إلى الكلية والغيرية؟ لقد كانت الثقافة اليونانية عالمية، ولا سيما كما بدت عند الاسكندر، حينما انطلق يفتح بلاد الشرق؛ وكذلك وضعت الامبراطورية الرومانية تشريعاً عالمياً، ولم تمنع أفراد الشعوب التي أخضعها من أن تصل إلى أعلى المناصب في الدولة، بما فيها عرش الامبراطورية؛ ولا تختلف المسيحية في نزعتها الانسانية عن هاتين النزعتين، فهي دين المحبة، لا محبة القريب فقط، بل محبة الانسانية قاطبة. فهل بإمكان الفعل الاوروي أن يعايش هذه النزعات، ويرتفع بها إلى المستوى الانساني؟ إن هذا غير مستبعد فكرياً، ولكنه إمكان لم يتحقّق على الرغم من مرور ستة قرون على ميلاد الحضارة الغربية، وهذا وحده كافٍ لإخراجه من حيّز الإمكان: فالإمكان الذي لم يتحقق منذ ستة قرون، في دور النشأة لا يمكن ان يتحقق بعد ستة قرون، في دور النضج الكامل. ولعلّ عدم تحقّقه راجع إلى أنه دخيل، وأن الروح الاوروبية تريد أن تحافظ على أصالتها.

ولكن! هناك بارقة أمل، وهي أن تنفذ الفلسفة الغربية ذاتها بقيمتها العليا - وفلسفة القيم بلغت فيها مستوى عالياً - إلى الفعل السياسي المتحكّم بالعلم - التقنية، وأن تجعل هذه القيم هي التي تسيّر المجتمعات. والقيم التي نعيشها هنا، هي كل القيم من أدناها إلى أعلاها: من القيمة التي تتعلق بلقمة العيش إلى القيم التي تتعلق بكمال الوجدان. من القيمة الاقتصادية إلى قيم الحق والخير والجمال؛ فما لم تبلغ البشرية كمالها بالقيم العليا، لا يكون هناك ضمان لاستمرار احترام القيمة الدنيا.

ولكننا بدأنا نشهد حقاً بزوغ هذا الأمل، من الفعل الأوروبي ذاته، ولكنه بزغ على نحوين مختلفين، في عالمين مختلفين: عالم الاشتراكية وعالم الرأسمالية؛ وكان بزوغه هنا وهناك يشير إلى نقص لا بد من تلافيه، للوصول إلى الكمال.

والحقيقة، ليس التفكير الماركسي في جوهره سوى محاولة لتلافي النقص في الفعل الأوروبي، ورفعته إلى مستوى الكمال، بالمناداة بالعدالة الاجتماعية هدفاً للدولة المعاصرة. ولكن هذه المحاولة لم تزل في بدايتها، فهي من ناحية لم تر من عالم القيم غير العدالة الاجتماعية، وقد فهمتها على أنها عدالة إقتصادية؛ وهي من ناحية أخرى ما زالت تلقى المعارضة الشديدة من غالبية دول العالم. إننا لا ننكر أهمية الاقتصاد وتنظيمه في بلوغ هذه الغاية، ولا سيما أن الجشع الاقتصادي كان في أساس الفعل الأوروبي حين انطلاقه مستعمراً بلاد العالم، وأنه ما زال المسير الحقيقي لأكثر الدول الأوروبية والأميركية. ولكن الوقوف عند حدود الاقتصاد لا يحقق للبشرية أملها في الكمال، وإن كان الخطوة الأولى الضرورية. ما الذي يضمن لنا التوزيع العادل للخيرات الاقتصادية، ونفوس البشر لم ترتب على احترام العدالة الاجتماعية؟ وقد رأينا أن روح الجشع والكسب والمغامرة والضعينة والعدوان هي التي سيّرت أوروبا كلها في خلال ستة قرون؟! وأن هذه الروح قد ورثها العالم الغربي في القارة الأميركية. لا بد من ضامن لقيام العدالة الاجتماعية واستمرارها، وهذا الضامن هو تربية البشر على احترامها. ولكن احترامها لن يكون من دون تربية على القيم كلها ولا سيما على قيم الحق والخير والجمال، فمن دون هذه القيم، لا يمكن للعدالة الاجتماعية أن تحمل مسوّغها في ذاتها: فالتربية على احترام القيم العليا هي التي تجعل من الممكن احترام العدالة الاجتماعية والعمل على استمرارها بين الناس.

ولكن شمس القيم العليا أخذت بالبزوغ أيضاً في أوروبا الغربية، غير أن أشعتها ما زالت تسبح في الفضاء، ولم تنل بعد أبناء الأرض لتدفئهم وتنير طريقهم. إنها ما تزال في عالم التفكير الفلسفي، ولم تتناول عالم التفكير السياسي، الذي له صلة بالجهان، فتربط بين قيمة العدالة الاجتماعية والقيم العليا. لقد نمت فلسفة القيم في المجتمعات الغربية نمواً كبيراً، ولكنها ما زالت منعزلة عن السياسة؛ ولهذا يعيش العالم الغربي في انشقاق على ذاته: فقيمه التي هداه إليها التفكير الفلسفي، ما تزال بينها وبين الحياة الاجتماعية فجوة كبيرة، وهي فجوة لن

تملأها إلا قيمة العدالة الاجتماعية .

وهكذا، إذا تمكنت الاشتراكية من الارتفاع من العدالة الاجتماعية إلى القيم العليا، وتمكنت الرأسالية من ملء الفجوة بين الفكر والحياة الاجتماعية، بالعدالة الاجتماعية، أمكننا أن نرى الأمل يتحقق في استمرار الفعل الاوروي، واستمرار البشرية في الحياة .

المحواشي:

- (١) دونالد ر . دولي : حضارة روما ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٤ ، (ص ٦) .
- (٢) ل . ج . شيني : تاريخ العالم الغربي ، مكتبة النهضة العربية ، (ص ٦٣) .
- (٣) ستيفن رنسيان : الحضارة البيزنطية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ ، (ص ٢٥) .
- (٤) المصدر السابق (ص ٣٧) .
- (٥) المصدر السابق ، (ص ٢٨ - ٣٩) .
- (٦) محمد حسين هيكل : حياة محمد - الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ١٣٠) .
- (٧) ابن هشام : ج ٤ ، ص ٣٤٠ الطبري : ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، نقلاً عن حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ١ - الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ٢٠٥ - ٢٠٦) .
- (٨) الطبري : ج ٤ ، ص ٤٥٤ ابن الاثير : ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، نقلاً عن حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام : ج ١ ، (ص ٢١٢) .
- (٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١ ، (ص ٣٥٤ - ٣٥٧) .
- (١٠) المصدر السابق ، (ص ٢٦٧ و ٣٥٧) .
- (١١) المصدر السابق ، (ص ٢٦٧ - ٢٦٨) .
- (١٢) تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، (ص ٢٤٣) .
- (١٣) المصدر السابق ، (ص ٢٤٤) .
- (١٤) المصدر السابق ، (ص ٢٤٥ - ٢٤٦) .
- (١٥) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ - الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ ، (ص ٢٩٦) .
- (١٦) ل . ج . شيني : تاريخ العالم الغربي ، (ص ١٢٩ - ١٣٠) .
- (١٧) المصدر السابق ، (ص ١٣١) .
- (١٨) الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ - الطبعة الثانية ، (ص ٢٩٧ - ٢٩٨) .
- (١٩) المصدر السابق ، (ص ٤٦٩) .
- (٢٠) المصدر السابق ، (ص ٤٧٠) .
- (٢١) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ - الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠ ، (ص ٢٦٤ - ٢٦٥) .
- (٢٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ ، (ص ٧٠ - ٧٥) .
- (٢٣) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، (ص ٢٦٥) .
- (٢٤) تاريخ العالم الغربي ؛ مصدر سابق ، (ص ١٧٤) .

-
- (٢٥) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ - دار الثقافة، بيروت ١٩٥٩، (ص ٣٠٣).
- (٢٦) المصدر السابق، (ص ٣٠٤ - ٣٠٥).
- (٢٧) المصدر السابق، (ص ٣١١ - ٣١٢).
- (٢٨) الاسلام والحضارة العربية. ج ١: مصدر سابق، (ص ٣٢٦ - ٣٢٧).
- (٢٩) تاريخ العالم العربي: مصدر سابق، (ص ٣٦٤).
- (٣٠) المصدر السابق، (ص ٣٦٦).
- (٣١) ب. م. هولت: صانعو اوروبا الحديثة - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ١٩٨٠.
- (٣٢) الفرد نورث هوانتهد: أهداف التربية (The Aims of Education) - الطبعة الثانية، منشورات المكتبة الأميركية الجديدة، نيويورك ١٩٥١، (ص ٤٠).
- (٣٣) المصدر السابق، (ص ٤٠ - ٤١).